المحاضرة (02) : التطور التاريخي لعلم النفس الاجتماعي :

تمهيد :

إنّ نقطة البداية بالنسبة لعلم النفس الاجتماعي تحيلنا ولاشك إلى الفلسفة أم العلوم فعلم النفس الاجتماعي كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى انبثق عن الفلسفة ما يجعلنا نتتبع نشأته انطلاقا من الحضارات القديمة التّي تضمنت فكرا اجتماعيا ونفسيا حول طبيعة الإنسان ومصادر السلوك الإنساني من خلال آراء الكثير من المفكرين والفلاسفة، لتمتزج بعد ذلك الفلسفة بالعلم للوصول في الأخير إلى المرحلة العلمية واستخدام التجريب ...ومن خلال هذه المحاضرة نتتبع نشأة وتطور علم النفس الاجتماعي وفق التراث التاريخي لهذا العلم من خلال عرض أهم مراحله.

أوّلا : النشأة الفلسفية

"يلاحظ الدارس لتاريخ علم النفس الاجتماعي اختلاف الباحثين في تحديد ما يعتبر بداية للفكر النفسي الاجتماعي، ليس بالضرورة بالمعنى المعاصر، فيبدأ البعض بالفكر الفلسفي اليوناني لأفلاطون وأرسطو، والبعض الآخر يجعل نقطة بدئه التيارات الفكرية التي ظهرت في الحضارة الغربية، مع عصر النهضة وآخرون يبدؤون من التأريخ للعلم بصدور أول كتابين يحملان اسم علم النفس الاجتماعي لكل من روس وماكدوجل عام 1908، أو مع بدايات التجريب المبكرة في الظواهر النفسية الاجتماعية على يد تريبيلت عام 1897". (أحمد، 2001، الصفحات 10-11)

لم يكن علم النفس الاجتماعي في بداية نشأته علما قائما بذاته فقد اختلطت مواصفاته بالفلسفة القديمة والتأملات النظرية التي جعلته ضمن إطار الفلسفة القديمة زمنا طويلا (الأزرق، 1434هـ , 2013م، صفحة 23)

ولقد كان جوهر الطبيعة البشرية هو المحور الرئيسي للنشأة الفلسفية لعلم النفس الاجتماعي وبذلك بدأ علم النفس الاجتماعي بين أحضان الفلسفة، وكان جزءا من الفلسفة الاجتماعية ويرجع بعض الباحثين النشأة الأولى لعلم النفس الاجتماعي إلى آراء "أفلاطون " و" أرسطو " عن جوهر الطبيعة البشرية. (السيد،عبد الرحمن، 1419 هـ - 1999، صفحة 22)

1- سقراط : (469ق.م – 399ق.م)

يعتبر سقراط من أعظم الفلاسفة والمفكرين في عصره ، كانت له آراء وتعاليم بعيدة المدى عميقة الأثر، كل ما وصلنا عنه يعود فيه الفضل لتلميذه أفلاطون الذي جمع بعض الأفكار والنظريات المتناثرة وضمنها في مؤلفاته رأى سقراط أن المعرفة تتكون من مدركات كلية أي من أفكار ومعان عامة صحيحة ، يقرها جميع الأفراد لا من إحساسات فردية، وقد انحصرت الفلسفة عنده في دائرة الأخلاق باعتبارها أهم ما يهم الإنسان. (العمايرة، 1420هـ 1999م، صفحة 105)

2- أفلاطون : Platon

" نظر إلى طبيعة العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع نظرة يغلب عليها الطبيعة النظرية للإنسان التي تحدد لكل فرد مكانه المناسب في المجتمع وفقا لقدراته واستعداداته ، وبهذا فإنه قد حافظ على إيجاد مجتمع طبقي تنعدم فيه أواصر العلاقات بين الطبقات حفاظا على قوام النظام الاجتماعي ومصلحة كل طبقة على حدة ، ورأى أن السلوك الاجتماعي يقرره المجتمع وليس الفرد، فالمجتمع هو الذي يؤثر في الفرد وسلوكه ويمكن تحويل سلوكه إلى كائن اجتماعي عبر عمليات التنشئة التربية التي يستمدها من المجتمع الذي يعيش فيه". (الأزرق، 1434هـ , 2013م، صفحة 24)

إن كتاب أفلاطون " جمهورية أفلاطون " متضمن للمبادئ والنظم التي ينبغي أن تقوم عليها المدينة الفاضلة، وتركيزه على تفسير السلوك الإنساني كناتج لمؤثرات المجتمع هو إقرار بإمكان تغيير الطبيعة البشرية من خلال التنشئة الاجتماعية التي تمارسها المؤسسات الاجتماعية المختلفة.

وتناول أفلاطون" الزعامة وأن الحاكم لا تقتصر قدرته على أن يسوس المجتمع ويلم بعاداته بل أن يكون على علم بالخير وكيفية تطبيقه في تقويم الأفراد والتنشئة الاجتماعية. (معوض، 2003، صفحة 31)

تحتوي كتابات أفلاطون على اتجاهات معينة يمكن إدراجها ضمن مجالات علم النفس الاجتماعي مثل : الحشد فيقول " عندما تجتمع أعداد كبيرة من الجمهور في اجتماع واحد كمجلس أو مسرح أو محكمة أو معسكر فإن مشاعرهم تتوحد إمّا بالاستحسان أو الاستهجان وفي كلتا الحالتين هناك مبالغة في هذه المشاعر. (معوض، 2003، صفحة 30)

يلتقي هذا التفسير لأفلاطون مع تحليلات بعض رواد علم النفس الاجتماعي الحديث.

كما أرجع أفلاطون النظم الاجتماعية إلى ظواهر نفسية بسبب غلبة الجانب السيكولوجي في تفكيره، وأنّ المجتمع يتكون من الأفراد تنظمهم علاقة مستقرة.

3- أرسطو :Aristotle

فسر سلوك الإنسان على أساس الوراثة الحيوية[1] مركزا على أن الإنسان يولد بغرائز تسيره، ولا يمكن تغيير طبيعة الفرد كما لا يمكن تغيير المجتمع، وإن ما يدعم نظرته السطحية هو تشابه الناس في المدن اليونانية المختلفة وتوحد أسلوب حياتهم (بني جابر، علم النفس الاجتماعي، 2004، صفحة 26)

وأن الإنسان يخضع في أنماط حياته المختلفة للمؤثرات والاستجابات البيولوجية فالجماعة لديه خاضعة في مكوناتها للسلوك الفردي ، وبما أن تغيير الأساس البيولوجي للفرد أمر يكاد يكون مستحيلا ، فتغيير المجتمع إذن أمر شاق عسير بعيد المنال (السيد،عبد الرحمن، 1419 هـ - 1999، صفحة 23)

وقد أشارت بعض المراجع أن " أرسطو " أعطى معنى لمفهوم علم النفس الاجتماعي وقال : إن الإنسان حضري واجتماعي بالفطرة، وتكون الجماعات ثم المجتمع ، ويتكون المجتمع من الأسرة فالقبائل فالقرى، فالمدن ، فالدول، والجماعات عنده خاضعة في مكوناتها للسلوك الفردي. (ولي، محمد، 2004، صفحة 17)

وقد كان لـ أرسطو تأملات عديدة تدخل في مجال علم النفس الاجتماعي منها ما يلي : (معوض، 2003، صفحة 31)

- الخطابة في كتابه الخطابة وضح العلاقة والتفاعل الاجتماعي بين الخطيب والمستمعين وقدرة الخطيب على توجيه التفاعل والسيطرة عليه.

- له بعض النظريات حول الأسباب المؤدية للقيام بعمل معيّن ، تنظيم الموقف الاجتماعي ، الأساس الاجتماعي النفسي لعاطفة تقدير الذات .

[1] كان أرسطو مهتما بعلم الحياة الذي كان موضوع اهتمام وتخصص أبيه الطبيب فتركز اهتمامه على النظرية الحيوية في تكوين المجتمع .

- أسباب السلوك الإجرامي وسمات المجرمين والضحايا.
- الصداقة وأهميتها في الحياة